ثقافة قبطية

بقى المجتمع المصرى متماسكا رغم الإختلاف, موحدا رغم التنوع , لا يعرف التقليل من شأن الآخر أو تكفيره أو إخراجه من دائرة المواطنة.
و إسهاما منا فى تعميق وترسيخ تلك القيم ننشر رؤية بعض الباحثين فى ثقافة التعايش المشترك.

التعايش المشترك : رؤية تاريخية جـ 2

التعايش الفكرى بين المصريين على مدار التاريخ فى تراث مخالفة الرأى دون تحريم أو تجريم

د . عاصم الدسوقى

استاذ التاريخ الحديث بجامعة حلوان

<u>خصوصية ثقافة المصريين</u>

وبعد هذه المقدمة الضرورية والمقصودة والتى أرجو ألا تكون غامضة ، ننتقل إلى الموضوع حيث نعرض لنماذج من الآراء التى كانت وما تزال تتصادم مع الموروث الثقافى وبعض الثوابت الدينية والاجتماعية أرسلها أصحابها منذ منتصف القرن التاسع عشر دون خوف من عقاب أو اتهام بالمروق والعصيان ، ودون تجريح من الذين يعارضونهم من أصحاب النفوذ والسلطة . وكانت حالة أشبه بالمعارك الفكرية التى لم تتجاوز هذا المعنى حتى إلى مجرد تبادل ألفاظ السباب والعدوان والتهديد ، حيث اقتصر الأمر على مقارعة الحجة بالحجة والرأى بالرأى تاركين للقارىء مهمة التحكيم والتفضيل والاختيار ، مما يؤكد ما سبق أن ذهبنا إليه فى المقدمة من حيث خصوصية ثقافة المصريين حتى لقد ندهش ونستغرب من سيادة روح التسامح والاعتدال وتقدير الاختلاف فى الرأى ، ويجعلنا بالضرورة نتساءل عما أصاب المصريين من انحراف عن تلك الروح إلى تكفير بعضنا بعضاً .

وقد يكون من المناسب أن نبدأ بموقف رفاعة الطهطاوى الجد الأكبر لتيار الاستنارة فى مصر الذى لم يجد غضاضة وهو المثقف الأزهرى فى القول بسيادة القانون الوضعى خلافاً للحكومة الدينية وذلك تأثراً بما شاهده فى الغرب الأوربى ، ونراه يترجم القانون المدنى الفرنسى بالاشتراك مع تلميذه عبد الله بك السيد (1866) ويقدم مفهوماً للعلم يختلف عن التصور الدينى الذى يقتصر على المتون والشروح والحواشى موضحاً أن العلم الصحيح يتناول كل القضايا الخاصة بالكون والإنسان قديماً وحديثاً .

وينظم قصيدة بعنوان " منظومة مصرية وطنية " فى 1855 تأييداً لوالى مصر سعيد باشا فى مناصرة العثمانيين فى حرب القرم ضد روسيا ، ويصف مصر بالوطن " الذى تولى إمرتها الغربا ، أعجاماً كانوا أم عرباً " . وفى كل هذا لم يتهمه أحد بالانحراف عن جادة الصواب أو بالتجديف فى الدين وأصوله ، أو بوصفه العرب بالأغراب الذين جاءوا إلى مصر .

ويأتى على مبارك بعد الطهطاوى ولا يجد حرجاً فى انتقاد حكم الولاة المسلمين لمصر منذ عام 642 لأنهم لم يتبعوا قواعد الشريعة فى إقرار العدل والإنصاف والرفق بالرعية . وأكثر من هذا أنه لم يتردد فى تعظيم بطليموس الأول " الذى أحبه الناس ولاذ بساحته أهل الفضائل حيث لم تر مصر بعد الفراعنة أحسن من أيامه " . (كتاب نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر 1881) .

وفى أثناء الثورة العرابية التى كانت ذروتها المظاهرة الكبرى أمام قصر عابدين (9 سبتمبر 1881) لا يخشى ميخائيل عبد السيد رئيس تحرير صحيفة الوطن من إبداء خوفه من نجاح العرابيين وخشيته " من أن ما بنته أسرة محمد على ينهدم فى يوم واحد ونتقهقر إلى حضيض الذل بعد العز " (الوطن 1881/9/17) ، وهى إشارة إلى النزعة الإسلامية فى الخطاب السياسى لعرابى الذى كان يصف نفسه بأنه أحمد عرابى الحجازى . وفى علاقة الدين بالسياسة أشار على مبارك فى كتابه

"علم الدين " (1882) إلى تضافرهما معاً وليس تناقضهما لأن وجودهما معاً يؤدى إلى الاعتدال والوقوف مع خط الوسط ومن ثم السعادة . ونراه يقترب دون خشية من نقطة أصل الإنسان وتطوره وهى مسائل شائكة وجدلية وتخرج من نطاق المسلمات الدينية . وفى تعليقه على حركة النبات من المشرق يقول دون خوف " وإنا وإن كنا نجزم بأن النبات نزل من الجنة ، لكنا لا ندرى متى نزل ولا فى أى بقعة نزل " .

وعندما قرأ الشيخ محمد عبده رأى أوجيست كونت عالم الاجتماع الفرنسى فى القرن التاسع عشر من أن الدين عنصر جوهرى فى قيام المجتمع الانسانى وأن كثيراً من الحروب قد قامت بسببه فى الماضى وسوف تشن بأسمه فى المستقبل فيكون من الأفضل أن تدين البشرية بدين واحد وضعى ينهض على عبادة الكائن الأعظم وهو الإنسانية ، إلخ لم ينبرى الشيخ مهاجماً ومسفهاً هذا الرأى وواصفاً صاحبه بالهرطقة والزندقة ، بل وجدناه يقول : إن الإسلام ينطوى على بذور الدين العقلى والعلم الاجتماعى والقانون الخلقى مما يجعله صالحاً ليكون أساساً للحياة الحديثة .

ولم يصادر أحد ترجمة فرح أنطون لكتاب أرنست رينان " مستقبل العلم " (1849) الذى قال فيه " إن الأديان المعروفة قد أصابها الضعف وهى تخلى مكانها لديانة العلم التى تمدنا بالكثير مما عجزت عنه المعتقدات القديمة ، وإن المفكرين المحدثين لن يتموا عملهم إلا إذا قضوا على الاعتقاد بما وراء الطبيعة كما قضوا على السحر والعرافة والكهانة ، بل ورفض فكرة التوفيق بين العلم وما وراء الطبيعة ، وكذلك الحال عندما ترجم شبلى شميل فى عام 1910 كتاب داروين " فلسفة التقدم والتطور " . وكتب كثيراً من المقالات فى مجلتى المقتطف والهلال عن أفكار داروين دون أن يتعقبه أحد ويرميه بالكفر والعصيان .

وفى أواخر عام 1888 ومصر تحت الاحتلال البريطانى يكتب ميخائيل عبد السيد مهاجماً التعصب ويقول " إن البلاد المرتاحة من آفة التعصب هى المرتقية إلى ذرارى المجد والسعد وبالعكس من ذلك فإن البلاد المتمكن منها هذا الداء هى

المنحطة إلى حضيض التأخر والنذالة " (جريدة الوطن فى 1888/11/14) . وهنا يكتب الشيخ على يوسف مشيراً إلى حرية الفكر باعتبارها من أهم المميزات التى " ميز الله بها الإنسان عن باقى الحيوانات ، وهى التى تجعل الإنسان مستقلاً أى ليس منقاداً لعامل آخر " (جريدة المؤيد 1889/12/25) .

وفى هذا المنعطف من الحديث عن التعصب تبرز على الساحة قضية الدين والقومية وعلى أى منهما يتأسس الوطن ، فيعلن أحمد لطفى السيد " أن الدين ليس بكاف وحده ليجمع بين الأمم ، إذ لا يجمع بين الناس سوى المنافع ، فإذا تناقضت المنافع بين قبيلتين استحال عليهما أن يجتمعا لمجرد رقابة فى الجنسية أو وحدة فى الدين " (المؤيد 1892/2/1) . ويؤكد فكرته مرة أخرى فى جريدة مصر (1896/2/22) مؤكداً أن " دار الإسلام ليست للمسلم بوطن فوحدة الاعتقاد الدينى ليست كافية لإقامة وحدة التضامن الوطنى " . ويلتقط الشيخ على يوسف الخيط ويرفض اعتبار الدين من مقومات القومية وانتقد كل من " يعتبر أن الرابطة الحقيقية بين الشعوب هى الوحدة فى الدين فقط " . وأشار إلى خطورة هذا على وحدة الوطن واستقراره إذ أن أفراد الأمة فى هذه الحالة " ينقسمون أحزاباً كما ينقسمون اعتقاداً كل حزب بما لديهم فرحون لا يعتبرون للوطن جامعة أخرى ولا للجنسية رابطة مختلف فيذهب بهم ذلك التعصب إلى استباحة كل دم الآخر وماله وعرضه فتتولد الفتن وتتفاقم المشاكل ويزهقون أنفسهم فدية لتلك الدعوة والدين الحق برىء منها " (المؤيد 1893/1/5) . ويؤكد ذلك أيضاً كل من تادرس المنقبادى فى صحيفة " مصر " وأخنوخ فانوس فى ذات الصحيفة (1896/2/22) .

ويتقدم الشيخ على يوسف خطوة أكثر جرأة فى ذلك الزمان عندما يؤكد على الروابط المشتركة بين المسلمين والأقباط ويقول " إن المصريين المسلمين الذين يراهم الإنسان فى المدن وفى الأرياف غالباً ليسوا من نسل العرب على الإطلاق ولا يصح إطلاقاً هذا اللفظ عليهم إلا من حيث اللسان والدين ، ومجرد النظر إليهم يكفى

للاقتناع بأن شكلهم الخلقى وشكل الأقباط متطابقان فى المميزات الجنسية تمام المطابقة ، وبناء على ذلك فإن المسلمين المصريين ليسوا فى الحقيقة إلا أقباطاً اتخذوا الإسلام ديناً لهم " (المؤيد 1894/3/13) . وقد أكد مصطفى كامل على هذه الفكرة بقوله فى خطبة له بالإسكندرية " إن هناك ألف دليل تاريخى على أن القسم الأكبر من مسلمى مصر مصريون من نسل الفراعنة الأولين ، فهل يغير اعتناق الدين الإسلامى الدم المصرى والجنسية المصرية " (المؤيد 1897/6/9) ، ولم يرجمه السامعون أو ينفض الناس عن دعوته فى الكفاح ضد الإنجليز .

وعندما تساءل أحد قراء مجلة الهلال (1894/9/15) عن كيف أن الكتب السماوية تقول بثبوت الأرض وتحرك الكواكب على حين يقول علماء الطبيعة بالعكس ، وجدنا أن محرر المجلة ينشر السؤال دون أن يوبخ صاحبه أو يحرض عليه السلطات ولكن يرد على السؤال فى هدوء بالقول إن دوران الأرض ثابت بالأدلة الطبيعية والبراهين القياسية ولا سبيل إلى نقض ذلك ، أما الكتب المنزلة فإذا جاء بها ما يؤخذ منه القول بثبوتها فلابد من تأويله لأن العلم الحقيقى يجب أن يطابق الدين الحقيقى والكتب المقدسة إنما شأنها هداية الناس إلى الطريق الحق ، فإذا ذكرت شيئاً عن الأرض وحركتها إنما يكون ذلك عرضاً فتورده على ما يوافق أفكار العامة ويطابق ما يقع تحت حواسهم " ، إلى آخر تلك العبارات اللطيفة التى تخاطب العقل والقلب معاً .

ومن الطريف أن نذكر أن حمد بك حمود الباسل من الفيوم وأحد زعماء ثورة 1919 فيما بعد أرسل إلى مجلة المقتطف (نوفمبر 1897) سؤالاً عن سبب تقدم اليابان مع أنها بعيدة عن أوربا ومراكز الحضارة الأوربية ، والأكثر طرافة ودهشة أن يرد المحرر فى شجاعة ودون حذر وبلغة مباشرة فيقول : " يظهر لنا أن السبب الأكبر هو أن ديانة اليابانيين لا تفصل بينهم وبين الأوربيين ولا تمنعهم من اقتباس التمدن الأوربى والعوائد الأوربية ، ولو كانت ديانة اليابانيين تمنعهم من مخالطة

الأوربيين ودرس علومهم والجرى على خطتهم وتقنعهم بأنهم أفضل خلق الله وأعلم بنى البشر وأن اتصالهم بالأوربيين يدنسهم ويفسدهم لبقوا متبعدين عن كل تمدن أوروبى ولو كانت بلادهم ملاصقة لأوربا " .

وفى مقال لفؤاد فلتاؤوس عن الوطنية والدين ووجوب الفصل بينهما قال " إن الدين هو علاقتى بالله جل ثناه والذى يعلم ما ظهر منى وما بطن ، والسياسة إن كنت سياسياً هى علاقتى بالناس فيما يسعد البلاد ويخلصها من أمراضها وعللها ، ومصر لا تستقل إلا إذا اتحد كذلك المسلمون والأقباط والاسرائيليون والأجانب والمستوطنون فيها ، والعقلاء الذين يقولون مصريون قبل كل شىء لا يدعون الناس إلى هجرة الدين معاذ الله لكن يحظرون مزجه بالسياسة ومزج السياسة بالدين " (جريدة مصر 1908/10/1) . والملاحظة السابقة يمكن أن نلاحظها هنا أيضاً ، كلام جرىء عن الفصل بين السياسة والدين يقوله مسيحى دون أن يخشى شيئاً ولم نجد رداً عدوانياً عليه فى الجريدة فى الأيام التالية . والأكثر جرأة أن يكتب جرجس بياض بصفته أستاذا للتاريخ كتاباً عن تاريخ مصر منذ عصر الفراعنة حتى الفتح العربى وطبعه تقريباً عام 1915 (المطبعة المصرية الأهلية بالقاهرة) ويقول فيه " وأخيراً استسلم سكان مصر الذين كانوا فى حالة اليأس والفقر والانحطاط فى عهد الرومان فى 641 لبطش عدد من العرب لا يتجاوز الأربعة آلاف حملوا على مصر حملة عنيفة مدفوعين بحماسة الدين الإسلامى الجديد وكان الحكم الرومانى قاسياً جداً على الوطنيين إلى حد أنهم رحبوا بالعرب وهم على غير دينهم وجل مدنيتهم الإسلام ص 82 (أى لا يملكون من المدنية والحضارة إلا الدين) ، ولم يصادر الكتاب ، ولم يقدم مؤلفه للمحاكمة بتهمة إهانة الإسلام !! .

وعندما تم اغتيال بطرس غالى رئيس وزراء مصر (1910) كتب مراد فرج وهو يهودى مصرى من طائفة القرائيين (ولد فى مصر 1866 وتوفى فيها 1956 وكان محامياً وأحد المستشارين القانونيين للقصر الملكى) ناعياً إياه فى مقالة

بصحيفة الجريدة تحت عنوان " حرب الوطن " وصف فيها بطرس غالى بأنه بطل الوحدة الوطنية ، وطالب فيها المسلمين بوجوب المساواة بين جميع الأديان رافضاً المبدأ القائل بأن رحمة الله لا تجوز على غير المسلم ، ولم يهاجمه أحد بل لقد نشر لطفى السيد المقالة دون خوف من اتهامه بالتعاطف مع بطرس غالى .

وعندما أقدمت ايطاليا على احتلال طرابلس الغرب (ليبيا) فى اكتوبر 1911 بدأت دعوة فى مصر لمساندة الدولة العثمانية صاحبة الولاية على طرابلس فى حربها ضد إيطاليا على أساس فكرة الجهاد الدينى ، وجدنا أن لطفى السيد يهاجم هذا التوجه ويكتب ثلاث مقالات تحت عنوان " سياسة المنافع لا سياسة العواطف " منتقداً فكرة الجهاد الدينى ، وتساءل قائلاً : كيف يفهم الاستقلال إذا باتت مصر أرضاً لكل مسلم يحل فى أرضها عثمانياً أو غير عثمانى " . وأكثر من هذا يهاجم الجامعة الإسلامية ومن جعلوا أنفسهم وبلادهم " على المشاع وسط ما يسمى خطأ بالجامعة الإسلامية تلك الجامعة التى يوسع بعضهم فى معناها فيدخل فيه أن مصر وطن كل مسلم " . (الجريدة سبتمبر 1912) .

على ذلك النحو وكما رأينا كانت <u>حرية الخلاف فى الرأى مكفولة</u> دون حذر ودون توقع الشر من جانب المخالفين فى الرأى ، ولعل هذا كان وراء تشجع كل كاتب على إبداء رأيه فيما يعتقد الآخرون حتى ولو كان ذلك يتناقض مع المسلمات الدينية .